﴿۞قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات: 31 - 37]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

للأنبياءِ فِطنةٌ بها يُدركون ما لا يُدرِكُه غيرُهم

لمّا حاور الملائكةُ إبراهيمَ عليه السلام وامرأتَه سارةَ بشأن البشارة، وكان عليه السلام قد فَهِم بِفِطْنَة النُّبوَّة، وتوقَّع أنَّ سبب نزولهم أكبرُ من مجرَّد تبشيرهما بالولد؛ سألهم عن ماهيَّة السَّبب الخفيِّ، وطبيعة الأمر الخطير الَّذي اقتضى نزولهم جمعًا هكذا، فقال: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؟.

وقد تنبَّهَ إبراهيمُ عليه السلام إلى ما لم تَنْتَبِه إليه امرأتُه مِن خَطْب نزول الملائكة، وهذا مطَّردٌ في جميع مواضع ذكر القصَّة من القرآن الكريم؛ ذلك أنَّه عليه السلام نبيٌّ، و"كان أعلمَ أهلِ زمانه بالأمور الإلهيَّة"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَطْبُكُمْ﴾: أصلُ (خطب) يدلُّ على الكَلام بَينَ اثنَيْن، ومنه الخَطْبُ: الأمرُ يَقَعُ، وإنَّما سُمّيَ بذلكَ لِما يَقَعُ فيه مِنَ التَّخاطُبِ والمُراجَعَة[2]، وهو: الأمر العظيم الَّذي يكثر فيه التَّخاطب، قال تعالى: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ [طه: 95]، وقال سُبحانَهُ هنا: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[3]، والخَطْبُ في الآية مرادٌ به الأمر المُهِمُّ، وقَلَّ ما يُعبَّر به إلّا عن الشَّدائد والمكاره[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 465.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خطب).
(3) الراغب، المفردات: (خطب).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 178.

2) ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: أصل (رسل) واحِدٌ مُطَّرِدٌ مُنقاسٌ، يدُلُّ عَلَى الانبِعاثِ والامتِدادِ، فالرَّسلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ، وناقَةٌ رَسْلَةٌ: لا تُكَلِّفُكَ سياقًا، وناقَةٌ رَسْلَةٌ أيضًا: لَيِّنَةُ المَفاصِلِ، وشَعْرٌ رَسْلٌ؛ إذا كان مُستَرسِلًا[1]، وأرسلَ اللّه تعالى الرُّسلَ: بعثهم بشرع لتبليغه والعمل به، قال اللّه تعالى: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [التوبة: 33][2]، والمُرادُ بهم في الآية: الملائكة الكرام، الَّذين كلَّفهم اللّه تعالى بقَلْبِ قرية لوطٍ عليه السلام.

3) ﴿مُّجْرِمِينَ﴾: أصلُ الكلِمَةِ مِنَ الجَرْم، وهو القَطْعُ[3]، وقيل أصلُه: الكَسْبُ، وفُلانٌ جَريمَةُ أهْله، أي: كاسِبُهُم، ومنه سُمّيَ الذَّنْبُ جُرْمًا؛ لأنَّهُ كَسْبٌ لِصاحِبه[4]، والإجرامُ: ارتِكابُ الجُرْم، وهو الإثْمُ العَظيمُ، وأعظم بالإجرام الكفر![5] يُقال: أجْرَمَ الرَّجُلُ؛ إذا ارْتَكَبَ ذَنْبًا، أو جَنَى جِنايةً[6]، والمُجرمُ في اصطلاحِ القُرآن هو الكافِرُ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [المطففين: 29]، وهو المُراد هنا.

4) ﴿مُّسَوَّمَةً﴾: أصلُ (سوم) يدُلُّ على طَلَبِ الشَّيءِ، يُقالُ: سُمتُ الشَّيءَ، أسومُه سَوْمًا، ومنه السَّومُ في الشِّراءِ والبَيعِ، وشَذَّ عنِ البابِ: السّومَةُ، وهي العَلامَةُ تُجْعَلُ في الشَّيءِ، والسّيما – مقصورٌ – مِن ذلك، فإذا مدّوهُ؛ قالوا: السّيماءُ[7]، وسَوَّمَ الفرسَ: جَعَلَ عَلَيه السّيمة، وقَولُهُ ﷻ: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾، أي: مُسَوَّمة بِعَلامَةٍ يُعْلَمُ بِها أنَّها لَيسَت مِن حِجارَةِ الدُّنيا، ويُعلَمُ بِسيماها أنَّها مِمّا عَذَّبَ اللّه بِها[8]، والمقصود بمسوَّمة هنا: معلَّمة بعلامات.

5) ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾: أصلُ (سرف) يدُلُّ على تعدّي الحَدِّ[9]، ومنه الإسراف: الإفراطُ في الشَّيءِ، وحقيقته: مُجاوَزَةُ الحَدِّ في كلِّ شيءٍ، وضِدُّهُ القَصْدُ والاعتِدالُ[10]، والإسرافُ أيضًا:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(2) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (رسل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (جرم).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (جرم).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 210.
(6) ابن عباد، المحيط في اللغة: (جرم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوم).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (سوم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرف).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (سرف).

التَّبْذيرُ، والمُسرِفُ: المُبذِّرُ[1]، ومِن مَعاني الإسرافِ في اللُّغة أيضًا: الإغفالُ، والإهمالُ، والإتلافُ، والتَّضييعُ، والإهدارُ، والإفسادُ، والغُلوُّ، والقَطْعُ[2]، والمُرادُ بالمُسرفين في الآية: المُتعدّون حُدودَ الله سبحانه، ومنهم: المشركون، فالشِّرك أسرفُ الذُّنوبِ وأعظَمُها[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَـن تـمـادى في الإجـرامِ؛ حلَّت به سُنَّة الهلاكِ

قال الخليل إبراهيم ﷺ للضَّيف المكرمين، بعد تمام حِوارِهم بشأن البِشارة بالولد: "لقد أدركنا هذه البِشارة، وحمِدنا اللَّه تعالى عليها، فما شأنُكم بعدَها"[4] أيُّها الوفد الكريم المُرْسَلُ مِن عند اللَّه تعالى؟.

فأجابوه بأنَّنا مكلَّفون من قِبَل الله تعالى بإهلاك أهل قرية سَدومَ، الَّتي فجَرَ أهلُها، وتفاقمت فاحِشَتُهم؛ حتّى بلغت بهم حدَّ الإجرام، وأنَّ إهلاكهم محدَّد بأساليبَ، منها: إمطارُهم بِطينٍ مَحْميٍّ إلى حدَّ التَّحَجُّر، وتلك الأحجار مخلوقة لذلك أصلًا، وهي مُعَلَّمَةٌ عند الله تعالى بِعلامات لأصحابها الَّتي تستهدِفُهم.

ثُمَّ جاء تعليقهُ تعالى على هذه القصَّة إخبارًا رسوله محمَّدًا ﷺ: فأنجينا أهلَ الإيمان بالله تعالى من سُكّان تلك القرية؛ وذلك بإخراجهم منها قُبيل إهلاكها، فما كان فيها إلّا أهلُ بيتٍ واحدٍ مِنَ المسلمين، وهوَ بيتُ لوطٍ ﷺ، المكوَّن منهُ وبِنتَيْه دون امرأتِه.

وبعد تدميرِ ملائِكَتِنا تلك القريةَ، وإهلاكِهم كفّارَها؛ خلَّفناها على صورةٍ وحالٍ صالحةٍ؛ للاتِّعاظ والاعتبار ممَّن يعتبرون، ويخافون حلول العذاب الوجيع من الله تعالى، فليَحْذَر كفّار قريش مِن التَّمادي في الكفر والمعاصي والعناد؛ لئلّا يحصل لهم هلاكٌ مثلُ

(1) الزبيدي، تاج العروس: (سرف).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سرف)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 50.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 178.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4097.

أولئك البُعَداء، فـ "هذه أمثالٌ يَضْرِبها الحقُّ ﷻ للطُّغاة المتكبِّرين، والكفّار الظّالمين، لعلَّهم يثوبون لرُشْدِهم، ويكفّون عن تَكْذيبهم وكُفْرِهم بما يجِبُ الإيمانُ بهِ، وخاصَّة يومَ البعث"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ قوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ عمّا قبله:

فُصل قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ عمّا قبله؛ لكونه استئنافًا بيانيًّا؛ إذِ الأصل أنَّ الجملة بقيَّةُ حوارِ إبراهيم ﷺ مع الملائكة الكرام، وما بينَهُما من حَديثِهم مع امرأته سارة جاء استطرادًا، هيَّأ له، ودعا إليه إقبالُها في صَرَّة، وإثارتها العجَب، ومعالجة الملائكة ذلك العجب فورًا.

إكمالُ الحوارِ مع الملائكة دليلُ نباهَةٍ وبصيرةٍ

ثُمَّ يعود السّياق هنا لإكمال حوار إبراهيم معَهُم بحسب أسلوب المُقاوَلَة؛ إذ كان آخرُ كلامهم معه ﷺ أن قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحجر: 53]، ولَم يُبدِ ﷺ تعجُّبًا، بخلاف امرأته، ثُمَّ استأنفَ هو هنا حوارَه معهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وقد فقِه بِفِطنته أنَّ نزول هذا الوفد الكريم من الملائكة وراءه هدفٌ أكبر من مجرَّد التَّبشير بغلام؛ لأنَّه ﷺ كان "أعلم أهل زمانه بالأمور الإلهيَّة"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل القول ماضيًا:

في التَّعبير بفعل القول ماضيًا في قول الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ مباشَرَةُ استئنافِ الحديث عن الخَطْبِ الأكبر الَّذي من أجله نزلوا، وفي صوغه ماضيًا إشارةٌ إلى جِدِّه ﷺ في تناول الأمور، وسرعته في مباشرة المهامِّ، وعنايته بعظائم الأمور وجلائلها، وفي عدم انشِغالِه عَن عظائم الأمور تعليمٌ للأمَّة، وتقديم الأسوة في هذا الموضع الدَّقيق.

الكبارُ ينشغلون بكبارِ الأمور، ولا يلهيهم عنها صِغارُها

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 538.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 465.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾:

لَـفْـتُ عـنـايَـةِ المُـخـاطَـب إلى الأمر الأعظَمِ

(الفاء) في قوله ﷺ: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فصيحَة؛ لإفصاحِها عن شرطٍ مقدَّرٍ، والتَّقدير: "إذ كنتم مرسَلين من جانب الله تعالى، فما خطبُكُم الَّذي أُرسِلتُم لأجله"[1]، وذلك أنَّه "استشعر أنَّهم رسل، أرسلهم الله لبعضِ الشُّؤون المهمَّة"[2]، وهذا "من عطف كلامٍ على كلامِ متكلِّمٍ آخرَ، ويقع كثيرًا في العطف بالواو، نحوُ قوله تعالى حكايةً عن إبراهيم: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: 124]، بعد قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124]، وقوله حكاية عن نوحٍ ﷺ: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١١٢﴾ [الشعراء: 112]"[3].

فالفاءُ عُنصر إيجازٍ بإيذانها بهذا الحذفِ الكبير، الَّذي يوفِّر عنايةَ المخاطَب على الانشغال بالأمر الأخطر وراءَ تَنَزُّلهم، وإشراكَه في جِدِّيَّةِ اللَّحظة.

بلاغةُ الاستفهام في قوله: (ما خطبكم):

مـــــن أدب الضّيافة عدمُ سؤال الضَّيفِ عن سبب مجيئه ابتداءً

الاستفهام في قوله ﷺ: (ما خطبكم أيُّها المرسلون) استفهامٌ حقيقيٌّ؛ إذ لا يعلم السّائل - وهو إبراهيمُ ﷺ - الخبرَ، فيستَعْلِمُهم عنه؛ ولذلك أتى الجوابُ صريحًا ومباشرًا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٣ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾.

وقد عرف إبراهيمُ ﷺ أنَّ هؤلاء ملائكةٌ كرام، وعلم بِفِطْنَته و"عِلْمِ النُّبوءة أنَّ إرسال الملائكة إلى الأرض بتلك الصّورة لا يكون إلّا لخطبٍ"[4]، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾ [الحجر: 8]، و"أنَّ هذه البُشْرى لم تكن إلّا تطمينًا له،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 5.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 810.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 5.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 6.

وإجلاءً للرَّوْع الَّذي استولى عليه، فلمّا ذهب رَوْعُه، وأنِس إلى هؤلاء الملائكة الكرام؛ سألهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾"[1].

"وإنَّما سألهم بعد أن قَراهُم جَرْيًا على سُنَّة الضّيافة ألّا يُسأل الضَّيفُ عن الغرض الَّذي أوردَهُ ذلك المنزل إلّا بعد استعدادهِ للرَّحيل؛ كيلا يتوهَّم سآمة مُضيفه من نُزوله به، وليُعينَه على أمره إن كان مُسْتَطيعًا، وهُم وإن كانوا قد بشَّروه بأمر عظيمٍ إلّا أنَّه لم يعلم هل ذلك هو قُصارى ما جاؤوا لأجْله؟"[2].

دلالةُ التَّعبير بالخَطْبِ في قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾:

في تعبير الخليلِ عليه السلام عن سبب نزول الملائكة بمفردة الخَطْبِ دلالةٌ على فِطْنَته، وعِلْمِه عن ربِّه تعالى أنَّ إنزاله هذا الوفدَ من الملائكة إنَّما يكون لشأنٍ خطير؛ لذلك عُبِّر بالخطب؛ لأنَّ "الخطبَ: الشَّأنُ العظيم، الَّذي يقع فيه التَّخاطُب والبحث لِغرابته أو إنكاره"[3]، "وقلَّ ما يُعَبَّر به إلّا عن الشَّدائد والمكاره حتّى قالوا: خطوب الزَّمان، ونحو هذا، فكأنَّه يقول لهم: ما هذه الطّامَّة الَّتي جِئْتُم لها؟"[4]، فـ "عِظَم الشَّأنِ يَدلُّ على عِظَم مَن على يَدِه يَنقضي"[5]، وقد كان الأمر، كما توقَّع عليه السلام، فكان خطبُهم إهلاكَ قريةٍ بأكملها، وهي قرية سَدومَ.

نـزولُ المَلائكَةِ لا يـكـونُ إلّا لأمـرٍ عظيمٍ خطيرٍ

دلالةُ الإضافةِ في ﴿خَطْبُكُمْ﴾:

إضافته عليه السلام الخطب إلى ضميرهم؛ لوجودِ المُلابسَة، والمعنى: ما الخَطْبُ الَّذي أُرسِلْتُم لأجله؛ إذ لا تَنزِلُ الملائكة إلّا بالحقِّ[6]، وفيه دلالةٌ على أنَّه خَطْبٌ من الخطورة بحيث يُعْرَف بهم، ويُضاف إليهم،

نـــزول الملائـكـة إنَّما يكون لأمر جَلَلٍ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/ 246.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 5.
(3) رضا، تفسير المنار: 12/ 266.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 178.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 178.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 6.

فلم يقل: فما الخطب، وذلك لأنَّهُ نبيٌّ عَلَّمه الله تعالى، فجاء تعريفُه خَطْبَهم بِما يَعْلَمُ منه، ويَتوقَّع.

وقد يكون المقصودُ أنَّ إبراهيمَ ﷺ "أتى بما هو مِن آداب المُضيف؛ إذ يقول لِضَيفه إذا استعجَلَ في الخروج: ما هذه العَجَلَة؟ وما شُغْلُك الَّذي يَمنعنا من التَّشرُّف بالاجتماع بك؟ ولا يسكت عند خروجِهم مخافةَ أن يكون سكوتُه يوهِم استثقالَهم، فأتَوا بِما هو من آداب الصَّديق الَّذي لا يُسِرُّ عن الصَّديق الصَّدوق، لا سيَّما وكان ذلك بإذن الله تعالى لهم في إطْلاع إبراهيم ﷺ على إهلاكهم قومَ لوطٍ، وجَبْر قلبه بتقديم البِشارَة بخيرِ البَدَل"[1].

بلاغةُ الإيجاز في لفظ ﴿خَطْبُكُمْ﴾:

لمّا كان الخطبُ هو الأمرَ العظيم؛ قال: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾، والمعنى: أنَّكم لِعَظَمَتِكم لا تُرسَلون إلّا في شأنٍ عَظيم، ولو قال بلفظ مركَّب: (ما شُغْلُكم الخطير، وأمرُكم العظيم)؛ لَلَزِم التَّطويل، فالخَطْبُ أفاد التَّعظيمَ مع الإيجاز[2].

الجمعُ بين الأمر العظيم والإيجاز في التَّعبير من صوَرِ بلاغة الأنبياء

نكتةُ نداء الملائكة وخطابهم بـ ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾:

خاطب الخليلُ ﷺ الملائكةَ بـ ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؛ لأنَّه لا يعرف ما يُسمّيهم به إلّا وصف المرسلين، و﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ من صِفاتِ الملائكة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١﴾ [المرسلات: 1] في أحد تفسيرين[3]، وكما في قول الله سُبحانَهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: 1]، وفي ندائهم بـ ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أيضًا "إشارةٌ إلى أنَّهم ليسوا مجرَّد ملائكةٍ عابرين به، بل إنَّهُم محمَّلون برسالةٍ من ربِّ العالمين"[4].

الملائكةُ ينزلونَ بأمرٍ مِنَ الله تعالى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 178.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 178.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 6.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 522.

وعَرف أنَّهم مُرْسلون مِن قولهم: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠﴾ [هود: 70]، وإنَّما لم يُذْكَر هاهنا؛ لأنَّ الحكاية ببَسْطِها مذكورةٌ في سورة هودٍ، أو لأنَّهم لمّا قالوا لامرأته: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ [الذاريات: 30]؛ عَلِم كونَهم منزَلين من عند الله تعالى؛ إذ كانوا يَحكون قول الله تعالى، ويدلُّ لهذا أنَّ قولهم: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ كان جوابَ سؤالِه منهم[1].

وفي قوله: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ حذفٌ لأداة النِّداءِ، والتَّقدير: يا أيُّها المرسلون؛ لأنَّه لا يُحذف من أدوات النِّداء إلّا (يا)، وهي موضوعةٌ في الأصلِ لنداءِ البعيدِ، إلّا أنَّ الظّاهِرَ من الخطابِ أنَّه كلَّمهم، وهم حاضرونَ عِندَهُ، فيكون قد نزَّل القريبين منزلةَ البعيدينَ؛ تفخيمًا لشأنِهم وتعظيمًا، ويكون هذا من كمال إكرامِ إبراهيم ﷺ لضَيْفه.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، ولطيفة جمعِه:

الملائكةُ الكرام صنف خاصٌّ من رُسل الله تعالى

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ لتعريف العهد الذِّكْريِّ الكِنائيِّ، فهؤلاء هم المرسلون السّابق ذكرهم قريبًا في السّياق حين ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨﴾ [الذاريات: 28]، فقد أخبروه من خلال ذلك أنَّهم رُسُل ربّه ﷻ، فخاطبهم بـ ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، وكأنَّه يقول: أيُّها المُكْرَمون، أنتُم المُرْسَلون الجَديرون بهذا الوصفِ.

نكتةُ إيثار التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ دون (الملائكة):

تعليمُ أهلِ الإيمان الجِدَّ في الخِطابِ

في إيثار إبراهيمَ ﷺ نداءَ الضَّيف المكرمين بـ ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ دون (أيّها الملائكة) تنويهٌ بخطابه، وتعليمٌ للمُسْلِمين الجِدَّ في الخطابِ، وقد كشفوا ابتداءً عن كونهم يحملونَ رسالةً للنَّبيِّ إبراهيمَ ﷺ، وهي البِشارَةُ، ثُمَّ إحساسُهُ أنَّ لديهم مهمَّةً أخرى، فناداهم بتَكْليفهم.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 178.

دلالةُ صَوْغِ ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ اسمَ مفعولٍ:

رسلُ اللهِ تعالى مأمورون ملتزمونَ بالتَّكليف

في صوغِ إبراهيمَ ﷺ وصفَ المرسَلين اسمَ مفعولٍ تأكيدٌ على وضع الأمر في نصابه بذِكْرِ وظيفَتِهم، فإنَّهم أُنزلوا مُرْسَلين مكلَّفين، لا نازلين زائرين، فجاء خطابهُ إيّاهم بصيغة اسم المفعول ضبطًا للخطابِ بضابط التَّكليف الأعلى، وتضمينه أنَّ الله تعالى أرسلهم، وكَلَّفَهُم، كما قال الله تعالى عنهم في موضعٍ آخر: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: 64].

علَّةُ فصلِ قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾ عمّا قبله:

فَصْلُ الجوابِ عن سُؤاله من طُرقِ المُقاوَلَةِ

فُصلَ قول الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ عن قوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؛ لكونه استئنافًا بيانيًّا، وجريًا على طريقة المقاولة القرآنيَّة؛ إذ يُثير سؤالُه ﷺ: (ما خطبكم؟) سؤالًا في ذهن المُتَلَقّي، وهو: فماذا كان ردُّهم؟ ثُمَّ إنَّ الجملتين مختلفتان خبرًا وإنشاء؛ إذ إنَّ كلامهم جوابٌ خَبَريٌّ، وكلامه سؤالٌ إنشائيٌّ، فاقتضى ذلك الاختلافُ الفصلَ بهذا الاعتبار.

دلالةُ التَّعبير بفعل القولِ ماضيًا:

كمالُ الاحترامِ بينَ إبراهيمَ والمَلائكةِ ﷺ جميعًا

في التَّعبير بفعل القولِ في جملة ﴿قَالُوٓاْ﴾ دلالةٌ على إفْصاحهم بذلك له ﷺ، وصوغُه ماضيًا يقطَعُ بقَوْلهم ذلك فورَ سُؤالِه، وفي إفصاحِهم بهذا القول وعلى الفورِ عَقِبَ سؤالِه دلالَةٌ على تمامِ التَّقدير المُتبادَلِ بينَهُم وبينه، والجدِّ في التَّعامل؛ لأنَّهم جميعًا مأمورونَ الأوامرَ الجليلةَ.

وجهُ التَّوكيد بـ (إنَّ):

إهلاك قوم لوط واقعٌ محقَّقٌ، لا تنفع الشَّفاعَةُ فيهِ

من مقتضى توكيدِ الضَّيف المكرمين خبرَ إرسالهم بـ (إنَّ) في جملة: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ توفيةُ ذلك الخبر الخطير في ذاته حقَّهُ من التَّوكيد، بغَضِّ النَّظر عن حالِ المُخاطَب ﷺ من إنكارِهِ

أو عدم إنكاره، فـ "قد يكون التَّأكيد مِن جهة أنَّ القضيَّة في نفسها ممّا يُهتَمُّ به، وإن لم يكن هناك منكِرٌ"[1].

وكذلك يُلمح في هذا التَّوكيد ابتدارُ الملائكة الكرام حِلْمَ الخليلِ عليه السلام ورحمتَه المتوقِّعة لهؤلاء القوم المجرمين، وكأنَّ الملائكة عليهم السلام يقولون له في هذا التَّوكيد: إنَّ إهلاك هؤلاء أمرٌ واقعٌ محقَّقٌ؛ فلا تَلْتَمِسِ العفوَ عنهم، ولا تأخيرَ العقوبة رجاءَ توبتِهم، وذلك ما جاء في آية سورة هود عليه السلام؛ إذ يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود: 74 - 75].

مناسبةُ التَّعبيرِ بالإرسال دون البَعْثِ في ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾:

يُستعمل الإرسالُ حيثُ يُستعمل الرَّسول والرِّسالة

التَّعبيرُ المناسب من الملائكةِ الكرام هنا هو (الإرسال)؛ لأنَّ الإرسال إنَّما يُستعمل حيث يُستعمل الرَّسول[2]، ولا يكون إلّا فيما كان توجيهًا[3]، وقد سبق في السّياق قريبًا وصفُهم بأنَّهم مرسلونَ، وذلك في قولِه عليه السلام لهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، فجاء جوابُهم باستعمال (الإرسال)، فاتَّسق السّياق، وتكاملت الدَّلالات.

دلالةُ بناء الفعل في ﴿أُرْسِلْنَآ﴾ مبنيًّا للمفعول:

لا يتلقّى الملائكة الكرام التَّكليف إلّا من الله تعالى

بُنِيَ فعلُ الإرسال لغير فاعلِه في قول الضَّيف المكرمين: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾، والمعنى: "إنّا أُرسِلْنا، بأمر ربِّنا"[4]، وفي حذْفِ الفاعل دلالةٌ على عِلْمِه عليه السلام بالمرسِل ﷻ، وتعيُّنه عنده، كما هو عندَهُم، وكما هو في الواقع، وأنَّه ليس لهم إلّا مرسِل واحد؛ إذ لا يُرسِل الملائكةَ الكرام إلّا الله ﷻ، كما أقرّوا هم بذلك، فيما يَرْوِيهِ عنهم الذِّكْرُ الحكيمُ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: 64].

(1) ابن حجر، فتح الباري: 1/ 74.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 103.
(3) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 216.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 22.

بلاغةُ المجاز في فعل الإرسال:

الملائكةُ الكِرام يتقيَّدون بتكليفِ الله تعالى

الإرسال في أصل وضعه هو التَّوجيهُ، واللّه تعالى كلَّف الملائكةَ بالإهلاك، وهذا التَّكليف عُبِّرَ عنه بالإرسال، وذلك لِما لهذا التَّكليف مِن خطورةٍ، فصوِّر في صورة إرسال رسولٍ برِسالَةٍ جليلة، يحمِلُها الرَّسول؛ ليؤدّيَها إلى المرسَل إليه، وكأنَّ الملائكة تكبَّدوا مشاقَّ حَملها، وعالج بُعد السَّفر بها إلى حيثُ المرسَل إليه، و"الإرسال الَّذي في قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ مستعمَلٌ في الرَّمي مجازًا، كما يُقال: أرسَل سهمَه على الصَّيد، وهذا الإرسال يكونُ بَعد أن أصعدوا الحجارةَ إلى الجوِّ، وأرسلَتها عليهم، ولذلك سُمّيت مطرًا في بعض الآيات"[1]، وفي الإرسال أيضًا دلالةٌ على أنَّ الملائكة الكرام يتقيَّدون بتكليف اللّه تعالى، كأنَّهم يوصلون رسالةً لا دَخْلَ لهم فيها.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾:

الملائكة الكرام لا يقفون دون تنفيذ ما كلَّفهم الله تعالى به، ولا يتجاوَزونَه

﴿إِلَىٰ﴾ في تقييد إرسالِهم عليهم السلام بالقيد ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ بيانٌ لغاية الإرسالِ وانتهاء المهمَّة، وأنَّ غايتَهم الَّتي لا يَقِفون دونَها، ولا يتجاوزونها إنَّما هي إلى غايةِ قوم مجرمين؛ لِفعل كذا وكذا بهم، وفي ذلك بيانٌ محدَّد ودقيق لحدود المهامِّ، والتزامٌ تامٌّ بتفاصيلِها، دون تصرُّف أو تدخُّل فيها بتعديلٍ، كما يقول تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠﴾ [النحل: 50].

دلالة التَّعبير بـ ﴿قَوْمٍ﴾، ولطيفة تنكيره:

اجتماع النّاسِ على وصفٍ يُؤْذِن بأنَّه من مُقَوِّمات قوميَّتِهم

المراد بـ ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ في كلام الملائكة الكرام هم "أهل سدوم وعمّوريَّة، وهم قوم لوط"[2]، وكأنَّ الملائكة الكرام يقولون لإبراهيم عليه السلام: بـ "أنَّنا لم نُرسَل إليك بما توقَّعته مِن شَرٍّ، وإنَّما أُرسِلْنا إلى قوم مجرمين"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 6.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 6.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 522.

و"جريان وصفٍ أو خبر على لفظ القوم يُؤذِن بأنَّه مِن مقوِّمات قوميَّتهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَّآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: 164]"[1]، ممّا يعني أنَّ فحشاء قوم لوطٍ صارت من مُقَوِّمات قوميَّتهم، وأنَّهم يجتَمِعون عليها، ويَرْضَونَها جميعًا، حتّى صاروا بها قومًا، وصاروا بها مجرمين.

على أنَّ التَّعبير بالقوم يُستَعمل في الرِّجال غالبًا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: 11]، فالتَّعبير بـ ﴿قَوۡمٖ﴾ هنا يعكِسُ تمام توافُقهم على تلك الرَّذيلة، وقيام قوميَّتهم على أساسها، والعياذ باللّٰه تعالى.

دلالة إيثار التَّعبير بوصف الإجرام دون ذكر (قوم لوط):

فِعلةُ قوم لوط جريمةٌ جديرةٌ بإهلاكِ أهلِها

المجرم: فاعل الجَرائم، من كبار المعاصي، كالكفر والشِّرك ونحوهما[2]، وقد "وَصَفَهم ﷻ بالإجرام؛ لأنَّهم لم يكفروا فقط، بل أضافوا إلى الكفر فَقْدَ الطَّبيعة الإنسانيَّة، فشذّوا بفاحشةٍ ما سبَقَهُم بها أحدٌ من العالَمين، وإذا كانوا قد وصفوهُم بأنَّهم مجرمون، فمؤدَّى ذلك أنَّهم جاؤوا لإنزالِ العقوبة بهم"[3]، وفي وصف القوم بالإجْرام بيانٌ لسبب إهلاكهم بِعُقوبة الاستئصالِ، وهكذا تأتي العُقوبَةُ مقرونةً بسبَبِها فتُزيل الغرابة، وتميط لثام الشَّكِّ عن جدارتها.

وفي عدم ذِكرهم باسمهم الصَّريح (قوم لوط) تنزيهٌ للسّياق عن لوثة اسمهم، وبيانٌ بأنَّ فاعل تلك المعصية قَد بَلَغ حدَّ الإجرام؛ إذ "صَرَفوا ما أنعم اللّٰه به عليهم من القوَّة في قَطْعِ ما يَحِقُّ وصْلُه، ووَصْلِ ما يَحِقُّ قَطْعُه"[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 296.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 178.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4097.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 465.

نكتةُ وصف قوم لوط بـ ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾ دون (يجرمون):

مَن أدمن الفاحشةَ؛ دخل في عداد المجرمين

في صياغة إجرام قوم لوط باسم الفاعل ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾ دون صياغته فعلًا (يجرمون)، دلالَةٌ على رسوخ تلك الفاحشة فيهم، واستمساكِهم بها، ويدلُّ ذلك على أنَّ مَن أدمَن فاحشةً؛ دخلَ في عداد المجرمين - والعياذ بالله تعالى - بخلاف مَن ضَعُفَ، فأخطأ، ثُمَّ نَدِمَ، وتابَ.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ في ذكر الاستثناءِ:

التَّشابه اللَّفظيّ يَفي بحقِّ السّياقات القرآنيَّة

وقع التَّشابه اللَّفظيُّ بين قول الله تعالى هنا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾، وقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٩﴾ [الحجر: 58 - 59] "فكأنَّ الاستثناء هاهنا لم يكن مذكورًا في خبر الملائكة، وإنَّما ذُكر في الخبر الَّذي قال إبراهيمُ عليه السلام؛ إذ قال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: 32]، فدلَّ ذِكْرُ الاستثناء منهم - بعدَ سُؤالِ إبراهيم عليه السلام وإخبارِه إيّاهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾ [العنكبوت: 32] - أنَّ تأخيرَ البيان عن الكلامِ جائزٌ"[1].

معنى (اللام) في قوله: ﴿لِنُرۡسِلَ﴾:

عِلَّةُ الإرسال إلى النّاس إمّا للعذاب وإمّا للإكرام

(اللّام) في قوله: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ لام التَّعليل، جيء بها لتعليلِ الإرسال لا الإهلاك، فقَد سبقَ بيانُ تعليلِ الإهلاك في وصف ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾، وبقي بيانُ تعليل الإرسالِ، وهو ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾، فـ "إنَّهم أُرسِلوا إليهم؛ ليرسلوا عليهم حجارةً من طين، وكأنَّ هذه الحجارةَ هي الرُّسل الَّتي تُنزل عليهم مِن السَّماء بالدَّمار والهلاك، في حين أنَّ هناك رسلًا أخرى تَنْزِلُ على المُكرمين من عباد الله بالرَّحمة والإحسان"[2].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 386.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 522.

دلالةُ الإرسال في قولهم: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾:

تعديَةُ الإرسالِ بـ (على) للعذاب، وبـ (إلى) لغيرِه

معنى قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: "لِنُمطِرَ عليهم من السَّماءِ حجارةً من طينٍ"[1]، و"نَرْجُمهم بحجارة من طين متحَجِّر"[2]، فنُهْلِكهم بهذه الحجارة؛ لأنَّ لفظة (أرسل) اطَّرَد في استعمالها أنَّها إذا اتَّصلت بـ (على)؛ فهي بمعنى المبالغةِ في المباشَرَة والعذاب، ومتى اتَّصلت بـ (إلى)؛ فَهيَ أخفُّ[3].

بلاغةُ الجِناس بين ﴿أُرْسِلْنَآ﴾، و﴿لِنُرْسِلَ﴾:

مـادَّة الإرسـالِ غنيَّة بـدلالات اشتقاقاتِها

بين قول الملائكة ﷺ: ﴿أُرْسِلْنَآ﴾ وبين قولهم: ﴿لِنُرْسِلَ﴾ جناس اشتقاقٍ؛ وذلك لاختلاف معنى اللَّفْظَين[4] وأخْذ بَعْضِهما من بعضٍ، فالإرسال الأوَّل تكليفٌ بالإهلاكِ، والإرسال الثّاني مباشَرَةٌ لهم بالرَّجم وغيره؛ وذلك يحقِّق غاية الجِناس من المُخادعَة عنِ المعنى، مع تأديَةِ المقصودِ وافيًا.

معنى (على) في ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

شدَّةُ إهلاكِ الله تعالى المُجْرِمين

(على) في قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ في قول الضَّيف المكرمين: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ حرفٌ دالٌّ على الاستعلاءِ، وهو استعلاءٌ حسّيٌّ ومعنويٌّ، فالحِسّيُّ: بإسقاط الحجارة عليهم مِن جهة الأعلى، والمعنويُّ: بِقَذفهم بالحجارة مِن كلِّ جهةٍ، قذفًا قاسيًا ومدمِّرًا، فهو في قوَّته وشدَّة إهلاكِه مثل السّاقط من جهة الأعلى.

بلاغةُ تقديم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المفعول ﴿حِجَارَةً﴾:

لِفَظاعة فاحشة قـوم لـوطٍ؛ خُـصَّـت بـهـذه العقوبةِ

تقديمُ القيد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المفعول ﴿حِجَارَةً﴾، من قول الله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾، يفيد التَّخصيصَ والقَصْر، وأنَّ هذا العذاب مختصٌّ بهم مقصورٌ عليهم؛ لأنَّهم أهلُ الفسقِ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 532.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 106.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 178.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 6.

المشهورون به، المُخْتَصّون به، ولا يُعْرَف ذلك الجُرْمُ في غيرهم قبلهم؛ لذلك كانَ إرسالُ الحجارة المخصوصةِ هذه مقصورًا عليهم وحدَهُم دون غيرهم.

على أنَّ إسقاط تلك الحجارة المسوَّمة عليهم يكون "بَعدَ ما قَلَبْنا قُراهُم، وجعلنا عاليَها سافلَها، حسبَما فُصِّل في سائرِ السّورِ الكريمةِ"[1]، وذلك نهاية البَوار الحسّيِّ، والإهانة المعنويَّة.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿حِجَارَةً﴾، ونكتةُ تنكيرِها:

لِـكُـلِّ ذَنْـبٍ عـقوبةٌ، ولِكلِّ أهلِ جريمةٍ نوعُ عذابٍ

في التَّعبير بالحجارةِ تغليظٌ لعقوبةِ قومِ لوط، وترهيبٌ من قَسْوَتِه؛ وذلك لمعاقبتهم بحِجارَةٍ مَخْصوصَةٍ "لا يَعلم كُنْهَها إلّا اللّه"[2]؛ ملاءَمَةً لجريمتهم الغريبة، وفي تنكير لفظِ ﴿حِجَارَةً﴾ لَفْتٌ لتلك الغرابة، فإنَّها من طينٍ خالقُهُ اللّه تعالى، ولا يقدِرُ على مثلِه إلّا هو سبحانه، وعلى ذلك فبَيْنَ ﴿حِجَارَةً﴾ و﴿طِينٍ﴾ طِباقٌ لافِتٌ إلى غرابة تلك العُقوبة، كغرابة تلك الجريمَةِ.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن طِينٍ﴾:

تـعـدُّدُ معاني الـحُـروف يُـثْـري المَعاني القُرآنيَّة

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن طِينٍ﴾ بيانيَّة، تعيِّن مادَّة الحجارةِ الأولى قبلَ حَرْقِها وتَصْييرِها حجارةً صمّاء، مؤذيةً مُهْلِكَة، وفيها مَعْنى التَّبعيضِ؛ إذْ تُبيِّن أنَّ أصل تلك الحجارةِ أُخذ من طينٍ، وكذلك فيها معنى الابتداءِ، أي: إنَّ "أصلَها طينٌ تحجَّر بصَهْرِ النّار، وهي حجارة بُركانيَّة مِن كِبريت، قذفتها الأرضُ من الجهة الَّتي صارت بُحيرَة، تُدْعى اليومَ بحيرةَ لوط، وأصعَدَها ناموسٌ إلهيٌّ بِضَغْطٍ، جَعَلَه اللّه تعالى يَرفع الخارجَ من البُركان إلى الجوِّ، فنزلت على قرى قوم لوط، فأهلكتهم، وذلك بأمرِ التَّكوين بِواسطة القوَى المَلَكيَّة"[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 141.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1099.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 6.

دلالةُ تقييدِ الحِجارة بكونِها ﴿مِّن طِينٍ﴾:

في التَّعبير بلفظِ ﴿طِينٍ﴾ هنا دلالةٌ على أنَّ المخلوق قد يُعذَّب، بل يُهلَك بأصل مادَّته الَّتي خُلِقَ منها؛ إذ خُلِقَ الإنسانُ ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: 12]، وها هو يُهلَكُ بحجارة مادَّتها كذلك مِنَ الطِّين، وفي التَّعبير بالطِّين هنا إيماءٌ إلى حقارة هؤلاء المُهلَكين عند الله تعالى؛ إذ أهلكهم بأهونِ شيءٍ، وهو الطِّين.

بيانُ حقارةِ المُهلَكينَ عندَ الله تَعالى

وفي التَّقييد بـ ﴿طِينٍ﴾ دَفْعٌ لتوهُّم بعض النَّاس أنَّ المقصود بالحجارة (البَرَد)؛ لأنَّهم يُسَمّونه حجارةً، والمختارُ: أنَّ الله ﷻ له أن يفعل ما ذُكِرَ، وله أن يَخلق الحجارةَ من طينٍ على وجهٍ آخرَ مِن غير نارٍ ولا غُبار، لكنَّ العقلَ لا طريق له إلى الجزم بطريقِ إحداثه، وما لا يَصِلُ العقل إليه يَجِبُ أخْذُه بالنَّقل، والنَّصُّ ورد به، فأخذنا به، ولا نعلم الكيفيَّة، وإنَّما المعلوم أنَّ الحجارة الَّتي من طين، نُزولها من السَّماء أغربُ وأعجَبُ مِن غيرها؛ لأنَّها في العادة لا بُدَّ لها مِن مُكْثٍ في النّار[1]، وقد يكون المقصودُ بالطِّين هنا "السِّجّيل، وهو طينٌ طُبِخ كما يُطبَخ الآجُرّ، حتّى صار في صلابة الحجارة"[2].

دلالةُ تنكير ﴿طِينٍ﴾:

في تنكير لفظِ ﴿طِينٍ﴾ تعظيمٌ له؛ إذ إنَّه ﴿طِينٍ﴾ خطيرٌ منكور، لكنَّ "هذا الطِّين اللَّين الرَّخو يَفعل بِقُدرة الله تعالى فِعل الحجارة الصَّلْدَة، فيُهْلك، ويُدَمِّر، وكأنَّه الصَّواعق المنقضَّة من السَّماء"[3]، فهي حجارة ومِن نوعٍ مخصوصٍ مِن الطِّين الَّذي لا عَهْدَ لأحدٍ به، قد خُصِّص لهؤلاءِ وأمثالهم.

طينُ الحجارة الَّتي أُهلِكَ بها قوم لوط يَفعل بِقُدرته تعالى فِعل الحجارة الصَّلْدَة

نكتةُ الوصف بـ ﴿مُسَوَّمَةً﴾:

وَصْفُ ﴿مُسَوَّمَةً﴾ يدلُّ على اختصاصِ كُلِّ آثمٍ من أولئك

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 180.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 402.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 522.

اختِصاصُ كلِّ مجرمٍ بحَجَرٍ أو أكثرَ يُهْلِكُه

المجرمين بِحجرٍ أو أكثر، فَقَد وُسِمت لَه، وعُلِّمت باسمِهِ، وحُدِّدت؛ كنايةً عن شدَّة الغضب الإلهيِّ عليهم، قال ابن عباس: "يكونُ الحجرُ أبيضَ، فيه نقطةٌ سوداءُ، أو يكونُ الحجرُ أسودَ، فيه نقطةٌ بيضاءُ، فذلك تَسْويمُها"(1).

أو هي حجارةٌ "معروفة بأنَّها حجارة العذاب"(2)، "معلَّمة في أوَّل خَلقها في عِلْمِ اللّه تعالى، ومُعَدَّة لِلمُسْرفينَ"(3)، أو "مُرسَلة، مِن: أسَمتُ الماشيةَ، أي: أرسلتُها"(4).

توجيهُ إعرابِ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾:

تعـدُّد المعـاني وإثـراؤُهـا باختِلاف أوجُـهِ الإعرابِ

لتعدُّد أوجُه نَصْبِ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ إثراء دلاليٌّ هادف، فيجوزُ أن يكون نصبُ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ على الصِّفة لِـ ﴿حِجَارَةً﴾، أو على الحال في الضَّمير المستكِنِّ في الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْهِمْ﴾، أو من الـ ﴿حِجَارَةً﴾؛ لكونِها قد وُصِفَت بالجارِّ والمجرور(5)، ويُشْعِرُ كونُها وصفًا بلزوم هذا الوصفِ لها، وذلك يُؤَيِّدُ أنَّها معلَّمةٌ في ابتداءِ خَلْقِها في علمِ اللّه تعالى، وكونُ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ حالًا يومئُ إلى أنَّ تَعْليمَها طارئٌ عارضٌ؛ لِما تقرَّر من أنَّ الأصلَ في الحالِ أن تكونَ منتَقِلَةً.

دلالةُ التَّعبير بالعِنديَّة في قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

بشاعَةُ جريمة قـــوم لـــوطٍ وشناعتُها

يدلُّ القيد بالعِنْديَّة في قوله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ على فَظاعة جُرمهم في ميزان الحقِّ تعالى؛ إذ بلغت العنايةُ بعُقوبَتِهم أن يُسَوَّم كلُّ حَجَرٍ، ويُعلَّم مِن عند اللّه تعالى، لا مِن عند الملائكة، ولا مِن عند زبانيَةِ العذابِ مثلًا، وفي ذلك كنايةٌ عن فظاعَةِ الجُرْمِ وهولِ المُصيبة.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 532.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 106.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 15.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 141.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 106.

دلالةُ التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة في القيد ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

جريمةُ قومِ لوطٍ تتجاوَز في الفظاعة حدًّا لا تَشمله رحمةُ الرَّبِّ الرَّحيم

في التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة في القيد ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ دلالةٌ على بُلوغ جُرْمِهم مبلغًا لا تتداركُه رحمةُ الرَّبِّ الرَّحيم تعالى على الرُّغم مِنْ سعة رحمتِه سبحانه، فلم تَسَعْهُم تلك الرَّحمة، ولم يَشْمَلْهُم ذلك العفوُ؛ إذْ أسرفوا، وجاوزوا كلَّ الحدود، ما استحقّوا به الحرمانَ مِن رحمتِه وعفوِه ﷻ، وعوقبوا بالحجارة المسوَّمة.

دلالة الإضافة في ﴿رَبِّكَ﴾:

تأمينُ الملائكةِ خوفَ إبراهيمَ عليه السلام

في إضافة اسم الرَّبِّ سبحانه إلى ضمير الخطاب، في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، طَرْدٌ لأمثال قوم لوطٍ عَن ساحة رحمة الرَّبِّ الرَّحيم سبحانه، وتخصيصٌ لها بِنَبيِّ اللّه تعالى إبراهيم عليه السلام، وأتباعه الَّذين ساروا على مِلَّتِه، ملَّةِ الإسلام الحنيف، دون هؤلاء المجرمين، فهي مسوَّمة عند ربِّك لا رَبِّهم.

وفي الإضافة أيضًا كنايةٌ عن سعة رحمة الرَّبِّ الرَّحمن الرَّحيم تعالى، فإنَّه ربُّك - يا إبراهيم - الَّذي علِمتَ سَعة رحمتِه وكرمه وعطائه، ومع ذلك لم يَنْتَفِعوا بها، فما أشقاهُم!

فإنَّه "لمّا كان الملائكة قد رأوا اهتمامَهُ عليه السلام بالعلم بِخَبَرهم؛ خشيةً من أن يكونوا أُرسِلوا لِعذاب أحدٍ يَعزُّ عليه أمرُه؛ أمَّنوا خَوْفه بوصف الإحسان، فقالوا: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: المُحسن إليك بهذه البِشارة وغيرها"[1].

بيانُ مرجع الضَّمير في ﴿رَبِّكَ﴾:

شِدَّةُ جُرْمِهم أبعدَهُم عَن رحمةِ الله تعالى

ضمير الخِطاب في ﴿رَبِّكَ﴾ يعود إلى إبراهيمَ عليه السلام، وفي إيثار إضافة الرَّبِّ إليه عليه السلام دونهم في قولهم: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ لا (عند ربِّنا)، تذكيرٌ له بِسَعة رحمتِه، الَّتي يَعلم إبراهيمُ منها ما يَعْلَم، وأنَّها مع ذلك لم تَتَدارَكْهُم؛ ممّا يدلُّ على شدَّة فُحْشهم في مِقْياسِ الحقِّ ﷻ.

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 465.

معنى اللّام في قوله: ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾:

الإسراف في المعاصي من أعظم أسباب الهلاك

(اللام) في قوله: ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ لام الاختصاص، وفيها معنى التَّعليل أيضًا، فهذه الحجارةُ مُخْتَصَّةٌ بهم، وقد خُلِقَتِ ابتداءً، وسيمَت لأجلهم، وحُدِّدت بأسمائهم دون سِواهُم، وفي التَّقييد بـ (المسرفين) إشارة إلى خلاف ما يقول الطَّبَعيّون: إنَّ الحجارة إذا أصابَت واحدًا من النّاس؛ فذلك نَوْعٌ من الاتِّفاق، فإنَّها تنزل بطَبْعِها، فيتَّفق شخصٌ لها، فتُصيبه، فقوله: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾، أي: في أوَّل ما خلق، وأرسل، فإذا عُلِم هذا؛ فإنَّما كان ذلك على قَصْد إهلاكِ المُسْرفينَ[1].

معنى (أل) في ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾، ودلالةُ جَمعِه:

مُجاوزَةُ قومِ لوطٍ الحدَّ في الفُجورِ

(أل) في ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ لِتعريف العهد العلميِّ، أي: مسوَّمة لهؤلاء المسرفين بخاصَّة؛ إذ ليس لكلِّ مسرفٍ في الدُّنيا حجارة مسوَّمة[2]، والمقصودُ بهم: الكافرون المسرفونَ مِن قوم لوط، فـ "الشِّرك أسْرَف الذُّنوب وأعظَمُها"[3]، فتلك الحجارةُ مسوَّمة "للمجاوزين الحدَّ في الفجورِ بإتيانهم الذُّكور"[4] بخاصَّة.

و"سمّاهم مسرفينَ، كما سمّاهم عادينَ؛ لإسرافهم وعُدْوانِهم في عَمَلِهم؛ إذ لم يَقْنَعوا بما أُبيح لهم"[5]، وتجاوَزوهُ إلى فاحِشَتِهم الذَّميمة.

دلالةُ صَوْغِ (المسرفين) اسمَ فاعلٍ:

المُسرف يُقيم على الذَّنب حتّى يتمكَّن منه، فلا يقدِرُ على التَّوبة مِنْه

في صوغ (المسرفين) اسمَ فاعلٍ دلالةٌ على تمكُّنهم في الإسراف؛ إذ كانوا هم السّابقين إلى تلك الرَّذيلة، قال تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [العنكبوت: 28] أي: "لم يبلُغ مبلغَكم أحدٌ"[6].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 180.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 180.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 178.
(4) القِنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 203.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 402.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 181.

لطيفة إظهار (المسرفين) دون إضْمارِه (لهم):

بيانُ علَّةِ التَّعذيبِ والإهلاكِ

قال الآلوسيُّ: "ووُضِع الظّاهر موضع الضَّمير، أي: لم يقل: (مسوَّمة عند ربِّك لهم)، بل قال: ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ ذمًّا لهم بالإسراف، بعد ذمِّهم بالإجرام، وإشارة إلى عِلَّةِ الحكم"(1)، أي: علَّة الحُكم عليهم بالعذابِ والإهلاك، و"لِتَسْجيل إفراطهم في الإجرام"(2).

نكتَةُ الجَمعِ بينَ ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ و(مسرفين):

لا صغيرةَ مع الإصْرارِ، فإنَّها معهُ تَصيرُ كبيرَةً

"المُجرم: هو الآتي بالذَّنب العظيم؛ لأنَّ الجُرم فيه دلالةٌ على العِظَم، ومنه جِرم الشَّيء؛ لِعَظمة مِقداره، والمُسرِف: هو الآتي بالكبيرة، ومَن أسرف، ولو في الصَّغائر يَصير مُجرمًا؛ لأنَّ الصَّغير إلى الصَّغير إذا انضَمَّ؛ صار كبيرًا، ومَن أجرَمَ؛ فقد أسْرَف؛ لأنَّه أتى بالكبيرةِ، ولو دَفعة واحدة، فالوصفانِ اجتمعا فيهم.

لكنَّ فيه لطيفةً معنويَّة، وهي أنَّ الله تعالى سوَّمها للمُسرف المصرِّ الَّذي لا يترك الجرم، والعِلْم بالأمور المستقبلة عند الله تعالى، ويعلم أنَّهم مسرفون، فأمَرَ الملائكةَ بإرسالِها عليهم، وأمّا الملائكةُ؛ فعِلْمُهم تعلَّق بالحاضر، وأنَّهم كانوا مُجْرِمين، فقالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ نَعلمهم ﴿مُّجْرِمِينَ﴾؛ ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ خُلِقت لِمن لا يؤمن، ويُصِرُّ، ويُسرِف، ولَزِمَ مِن هذا عِلْمنا بأنَّهم لو عاشوا سنينَ؛ لتمادَوا في الإجرام"(3).

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ﴾:

طَيُّ ما لا يتعلَّق بذِكْرِه غرضٌ؛ إيجازًا واختصارًا

(الفاء) في قول الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عاطَفةٌ ما بعدها على محذوفٍ سابقٍ، والتَّقدير: "ففارق الملائكةُ إبراهيمَ ذاهبين إلى قوم لوطٍ لإهلاكهم، وجرى بينَهم وبينَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 15.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 7.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 180.

لوطٍ ﷺ ما جرى، ثُمَّ أخذوا في تنفيذِ ما كلَّفناهم به، فأخرجْنا بفَضْلِنا ورحمتنا مَن كان في قرية لوطٍ من المؤمنين دون أن يَمَسَّهم عذابُنا"[1]، وحُذِف ما حُذِف هنا؛ اكتفاءً بذكره في مواضع أُخَر[2].

ومن مزايا تلك الفاءِ: أنَّها تَطوي ما لا يتعلَّق بذِكْرِه غرضٌ؛ لتَقْفِزَ بالأسلوب إلى ما يتعلَّق الغرضُ بذِكْرِه، والغرضُ هنا يتعلَّق بإخراج المؤمنين مِن بين أظهُرِ الفُسّاق لإنجاء المؤمنين ممّا يَنْتَظِرُهُم مِنَ الهلاكِ.

دلالةُ التَّعبير بالإخراج في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾:

إنجاءُ اللهِ تعالى الأنبياءَ وأتباعَهُم مِنَ الهلاكِ

إخراجُ الشَّيءِ: إبرازه وإظهارُه، وإخراجه عن الصَّفِّ، أي: استثناؤه من الصَّفِّ[3]، والمراد بفعل الإخراج هنا: إنقاذُ لوط ﷺ ومن معه من المؤمنين من الهلاكِ الَّذي سَيَحُلُّ على قومِ لوطٍ قبل حُلولِه، وإظهارهم وإبرازهم بعيدًا عن موطن العذابِ، فلا يَروعُهُم وقْعُه على الكفّار.

بلاغةُ المجاز في التَّعبير بالإخراج في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾:

التَّنبيهُ إلى نتيجةِ الأمرِ وأثَرِه ابتداءً

الإخراج في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مستعمَل في سببِه، وهو الأمر ابتداءً بالخروج متمثِّلًا في تبليغ الملائكةِ الكرام أمرَ ربِّهم سبحانه إلى لوطٍ ﷺ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: 81]، فـ "اللّه تعالى أمر لوطًا بأن يَخْرُج هو ومَن معه مِنَ المؤمنين؛ لئلّا يصيبَهُم العذابُ"[4]، وعلى ذلك فالمجازُ مرسَلٌ لِعَلاقة المسبَّبيَّة؛ إذِ المذكورُ هو المُسَبَّب عن الأمر به، وتكمُنُ بلاغة ذلك المجازِ في التَّنبيه إلى نَتيجة الأمرِ وأثره، وهو الخروجُ نفسُه.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 22.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1100.
(3) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (خرج).
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 178.

دلالةُ إسناد الإخراج إلى ضَمير العظمَةِ في قوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾:

المؤمنون - دون الـفـاسـقـين - محلُّ عنايةِ الله تعالى

الَّذي باشَر إخراجَ المؤمنين من قرية قوم لوطٍ ﷺ هم الملائكة، كما صُرِّح به في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ [هود: 81]، لكنَّه لمّا كان ذلك الإخراجُ بأمرِ الله تعالى، وكانَ الملائكةُ لا يتصرَّفون من تلقائهم؛ أُسْنِدَ الإخراج مباشرةً إلى ضمير العظمةِ في قوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وهم لوطٌ وأهلُه إلّا امرأتَهُ[1]، والمعنى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾ "بما لنا من العظمَةِ بعدَ أن ذهبَت رُسُلنا إليهم، ووَقَعَت بينهم وبين لوطٍ ﷺ محاولاتٌ معروفَةٌ؛ لم تَدَعُ الحالُ هُنا إلى ذِكْرِها"[2].

ففي إسنادِ هذا الإخراج إلى ضمير العظمةِ دلالةٌ على العنايةِ الرَّبّانيَّة بالمؤمنين الأطهار؛ إذْ كأنَّه تعالى قد باشَر إخراجَ المؤمنين من القرية بنفسه ﷻ؛ كرامةً لهم، ورحمةً بهم، وتشريفًا وتعزيزًا بعدما كانوا مَنْبوذينَ من الفاسقينَ.

علَّةُ التَّعبير بالموصول في المفعول ﴿مَن﴾ دون ذِكْرِ لوطٍ وأهله:

ينـجـي الـلـه تـعـالى المُؤمنين لأجل إيمانهم، لا لـقـرابَـتـهـم مِـنَ الأنـبـيـاءِ والصّالحين

التَّعبير بالموصول ﴿مَن﴾ في قول الله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يُفسِح لذِكْرِ جُملة الصِّلة: ﴿كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بما تَشْتَمِلُ عليه من تفاصيلَ لا يُتيحها التَّعبير بالاسم الصَّريح، وكذلك الموصول يَطوي جميعَ الأسماء، الَّتي قد يَطولُ التَّركيب بتَعدادِها، "وقيل: كان لوطٌ وأهلُ بيته الَّذين نَجَوا ثلاثةَ عشرَ"[3]، فتعدادُ أسمائِهم أمر يَطول، فكانَ التَّعبيرُ بالموصول عنصرَ إيجازٍ أيضًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 7.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 466.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 402.

فَفي طَيِّ ذِكْرِ لوطٍ وأهله، والنَّصِّ على وصفهم بالمؤمنين "تنويهٌ بشأن الإيمان والإسلام، أي: إنَّ الله نَجّاهم من العذاب لأجل إيمانهم بما جاء به رسولُهم، لا لأجل أنَّهم أهلُ لوطٍ، وأنَّ كوْنَهُم أهلَ بيتِ لوطٍ؛ لأنَّهم انحصر فيهم وصفُ المؤمنين في تلك القرية"[1].

دلالةُ التَّعبير بالكون الماضي:

الأنبياءُ أمانٌ لغَيْرهم ما داموا فيهِم

في التَّعبير بفعل الكون الماضي ﴿كَانَ﴾ في جملة الصِّلة: ﴿كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دلالَةٌ على توطُّن هؤلاء المُؤْمِنين المخرَجين تلك القريةَ، وأنَّ كونَهُم فيها كان حِرزًا لأهلها مِنَ الهلاك، وأنَّ الهلاك ما حلَّ بها ولا بأهلها؛ حتّى أخْرَجَ الله تعالى المؤمنين منها، وحتّى لم يُبقِ فيها إلّا الأراذِلَ الأقذارَ.

معنى (في) في المتعلَّق ﴿فِيهَا﴾:

وطَنُ الإنسان عزيزٌ عليه

(في) مِنْ قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ ظرفيَّة، تدلُّ على اكْتِنانِهم فيها؛ لأنَّها قريتهم، وأنَّ لإخراجِهم منها أثرًا بالغًا في نُفوسِهم، فوطَنُ الإنسانِ عزيز عليه، كما قال الرَّسول ﷺ حين أُخْرِج من مكَّة: "ولَولا أنَّ أهلك أخْرجوني مِنْك؛ ما خرجت"[2].

كما أنَّ القيد ﴿فِيهَا﴾ يدلُّ على عناية الله تعالى بعباده المؤمنين؛ إذ أخْرَجَ من كان فيها من المؤمنينَ، فلم يَترُك منهم أحدًا للهلاك، وتلك عنايتُه سُبْحانه بأوليائِه وأصفيائِه.

بيانُ مرجعِ الضَّمير المجرور في القيد ﴿فِيهَا﴾:

الاكتفاءُ بالإشارَةِ عن التَّصريح إذا عُلِمَ المُرَاد

الضَّمير المجرور في القيد ﴿فِيهَا﴾ من قولِه تعالى: ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ يَرْجِعُ إلى "قرية سدوم - قريةِ قوم لوطٍ - وكنّى عن القرية بقوله: ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾، ولم يَجْرِ لَها ذكرٌ قبلَ ذلك"[3]؛ لكونها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 8.

(2) رواه الترمذي في جامعه، رقم: (3926)، وأحمد في مسنده، رقم: (18717) واللّفظ له، وصحّحه الألباني في صحيح موارد الظّمآن، رقم: (854، 855).

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 532.

معلومةً[1]، ففي الجملةِ وضعُ المضمرِ موضعَ المظهَرِ؛ اكتفاءً بِعِلْمِها من المقامِ.

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيانيَّة، أي: أخرَجَ سُبْحانه جِنس المؤمنين باللّه تعالى مِنَ الَّذين كانوا فيها، وعصمَهُم مِن العذاب والهلاكِ.

لله تعالى عنايةٌ بكُلِّ المؤمنين به

سرُّ إيثار وصف الإيمانِ في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

في التَّعبير بوصف الإيمان في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دلالةٌ على عُمقِ اليقينِ باللّه تعالى، كما أنَّ فيهِ مِن معاني الأمنِ والأمان، فمَنْ آمن باللّه تعالى حقَّ الإيمان؛ استشعر الأمنَ، وعاش الأمانَ، وإن كان في عَيْنِ المخاطر، كما أحسَّه، وعاشه الخليلُ عليه السلام في حفرة النّار، وكما عاشَهُ رسولُنا ﷺ، والكفّار يطوفونَ بهِ حول الغارِ في طريقِ الهجرةِ؛ إذْ يقولُ لصاحبه - وقد قال له وهُما في الغار: يا رسول اللّه، لو أنَّ أحدهم رفع قدمه؛ رآنا - فقال: «ما ظَنُّكَ باثنَيْنِ اللّه ثالِثُهُما»[2].

الإيمان يُحَقِّق لأهله الأمانَ

معنى (أل) في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وإشارة جمعِه:

(أل) في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هنا للعَهْدِ العلميِّ، أي: مؤمني هذه القرية بخاصَّة، وفي ذلك مزيدُ عنايةٍ بالأنبياء وأهل جيلِهم من المؤمنين، ويُفْهَم من ذلك أنَّ الأنبياء وأهلَ جيلهم من المؤمنين في مأمَنٍ مِنَ الهلاك.

الأنبياء وأهلُ جيلهم من المؤمنين في مأمَنٍ مِنَ الهلاكِ

أمّا غيرهم؛ فقد سُئل الرَّسول ﷺ: يا رَسولَ اللّه أنَهْلِكُ، وفينا الصّالِحونَ؟ قالَ: «نَعَم؛ إذا كَثُرَ الخَبَثُ»[3]، أي: وسكت عنه الصّالحون.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 402.
(2) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (4663)، ومسلم في صحيحه، رقم: (2381).
(3) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (3346)، ومسلم في صحيحه، رقم: (2880).

ويؤخَـذ مـن جَمع ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إخراجُ جَميعِهم منها قبلَ حلولِ العذابِ.

لطيفةُ تقديمِ وصف ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ في هذا السّياق:

المُسْلِم أعمُّ من المؤمنِ

ذكَر البِقاعيُّ أنَّ القلبَ لَمّا كان "عمادَ البدَنِ الَّذي به صلاحُه أو فسادُه، فكان عملُه أفضلَ الأعمال، وبه يكون استسلامُ الأعضاءِ أو جِماحها؛ بدأ به، فقال: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾"[1].

فبُدِئَ بوصف الإيمانِ لكونه أشرفَ؛ إذ كلُّ مؤمنٍ مسلمٌ، وليس كلُّ مسلمٍ مؤمنًا، ولذا قال الرّازيُّ: "والحَقُّ أنَّ المسلمَ أعمُّ مِنَ المؤمن، وإطلاقُ العامِّ على الخاصِّ لا مانع منهُ، فإذا سُمّي المُؤْمِنُ مسلمًا لا يدُلُّ على اتِّحاد مَفْهومَيْهما، فكأنَّه تعالى قال: أخرَجْنا المؤمنين؛ فما وجَدْنا الأعمَّ منهم إلّا بيتًا مِنَ المسلمين، ويلزَمُ من هذا ألّا يكونَ هناك غيرُهم مِنَ المؤمنين، وهذا كما لو قال قائِلٌ لغيرِه: مَن في البيتِ مِنَ النّاس؟ فيقول له: ما في البيتِ مِنَ الحَيواناتِ أحدٌ غير زيدٍ، فيكون مخبِرًا له بخُلوِّ البيتِ عَن كلِّ إنسانٍ غيرِ زيدٍ"[2].

بـبركـة المُحْسِـن قد ينجو المسيءُ

وفي إخراج المؤمنين قبلَ إنزال الهلاك بهم "بيانُ أنَّه بِبَرَكَة المُحسن يَنْجو المُسيء، فإنَّ القريةَ ما دام فيها المؤمنُ؛ لم تُهلَك"[3]، وذلك أدْعى للحِفاظ على حياة المؤمنين بالواحدِ ﷻ، على خلاف ما يرجوه الكفّار من خلوِّ بلادهم بل الكوكب كلِّه من المؤمنين، وفي ذلك هلاكُهم؛ لو كانوا يَعْلَمون.

ودليلٌ آخر على ذلك: هو أنَّ الهلاك الأخيرَ لأهل الأرض جميعًا - قُبَيْلَ يوم القيامة - لا يكون ما دام في الدُّنيا مَن يقول: الله الله، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «لا تقوم الساعة حَتَّى لا يُقالَ في الأرْضِ: الله،

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 466.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 181.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 181.

اللّه»[1]، فبقاء المؤمنين أمانٌ للكافرين، غير أنَّ الكُفْرَ يَطمس بصائرَ الكفّار، فلا يفقهون تلك الدَّقيقة.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا﴾:

الإيمان عند الله تَعالى محفوظٌ، ولا يَضيع على أهله

(الفاء) في قول اللّه تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ للتَّعْليل[2]، أي: لأنَّنا لم نجد عددَ المؤمنين فيها كثيرًا - إذ لم يكن المؤمنون إلّا أهل بيتٍ واحد - لذلك أخرجناهم، ودمَّرنا من سواهم، و"عن قتادة: لو كان فيها أكثرُ من ذلك؛ لأنجاهُمُ اللّه تعالى؛ لِتَعْلَموا أنَّ الإيمان عندَ اللّه محفوظٌ لا ضَيْعَة على أهله"[3]، وعلى ذلك يُعْطي التَّركيب بمفهوم المُخالفَةِ أنَّ عدد المؤمنين لو كان كثيرًا، وكانوا أغلب النّاسِ فيها؛ لَما أُخرجوا، ولَما أُهلِكت القريَةُ بأهلِها، كما حدَثَ.

معنى (ما) في قوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا﴾:

غـربَـةُ أهـلِ الاسـتِـقـامَـةِ بـينَ أهـلِ الشَّرِّ والفَسادِ

(ما) في قول اللّه تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ نافية، تُقَرِّر نَفْي وجدانِ الملائكة - في تلك القرية الآثم أهلُها - أكثرَ من أهل بيتٍ واحد من المسلمين؛ كنايةً عن عمومِ الفُحش أهلَ كلِّ بيوت القرية إلّا أهلَ هذا البيت اليتيم، فَهُم وحدَهُم الأطهارُ الباقون على الفِطرة السَّليمة، والخليقَةِ المستقيمة.

وهكذا أهل قُرَى الفُحش والخَنا يلوِّث بعضُهم بعضًا، ومَن يظَلُّ طاهرًا نقيًّا بينَهُم؛ فإنَّه يكابد الأمَرَّيْن في سبيل المحافظة على طُهره واستقامته، فأهل الاستقامة بين أهلِ الفُحش والخَنا غرباءُ.

دلالةُ التَّعبير بفِعْلِ الوجدان في ﴿وَجَدْنَا﴾ ماضيًا:

تحقُّق ما تعلَّق بالوجدانِ

الوجدان في قوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا﴾ مراد به تعلُّق علم اللّه تعالى

(1) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (148).
(2) أبو البقاء، الكليات، ص: 112.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 532.

بالمعلوم بعدَ وقوعه، ووجدانُ الشَّيء: إدراكُه وتحصيله[1]، وصيغة المُضيِّ في فعل الوجدان تدلُّ على تحقُّق ما يتعلَّق به الوجدان مِنَ الفَرْزِ والبَحْثِ عن مُؤْمنين، والقطع بذلك؛ ممّا يُقرِّر أنَّ هذا القصرَ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ.

بلاغةُ الاستعارة في فعل الوجدان:

أهلُ الإيمان أهلُ عناية الله تعالى

في التَّعبير بفعل الوجدان هنا استعارةٌ مكنيَّة، فكأنَّ عمليَّةَ بَحثٍ عن المؤمنين، وفرزٍ وتجنيب لهم عنِ الكافرين تمَّت، ولم تُسفر إلّا عن وجود أهل بيت واحدٍ؛ مبالغةً في بيان شيوعِ الفُحْشِ والفُجور وعمومِهما أهلَ تلك القرية بيوتًا وأفرادًا، ذكورًا وإناثًا، وأنَّ نِسبة المؤمنين فيها إلى الفاجِرين لا تكادُ تُذْكَرُ.

وفي ذلك إيحاءٌ بسُموِّ مكانة المؤمنين، وشرفِ إيمانهم، بحيث يُبحَثُ عنهم، ويُفرز أهلُ القرية، وتُفرَز بيوتُها تنقيبًا عنهم؛ ضمانًا لسلامتهم من تَرْويعهم بأيِّ أذًى قبل حلول الهلاكِ.

دلالةُ إسناد الفعل في ﴿وَجَدْنَا﴾ إلى ضمير العظمة:

فِعْلُ الملائكة الكرامِ يُنسَبُ إلى الله تعالى؛ لأنَّه بإذنه وأمره

في إسناد فعل الوجدان المنفيِّ إلى ضمير العظمة تجوُّزٌ؛ إذ مَن يُسند إليه هذا الفعل حقيقةً هُم الضَّيف المكرمون الَّذين باشروا المهمَّة، لكنَّ النَّظم الكريم أسنده إلى ضمير العظمة لله ﷻ مبالغةً في التَّحقيق، وتأكيدًا على خُلوِّ القريةِ مِن مؤمنين آخرين؛ إذ لا يُقال: (ما وجدت كذا) إلّا بَعد الفحص والبحثِ والتَّفتيش[2]، وفي إسناد الأمر إليه تعالى أيضًا تشريفٌ لِرُسله؛ إعلامًا بأنَّ فعلَهم فعلُه[3] ﷻ.

لطيفةُ تكرار القيد ﴿فِيهَا﴾:

تأكيدُ العُمومِ وتَقْويتُه

في تكرار القيد ﴿فِيهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 8.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 15.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 466.

بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ بعد سَبْقِ ذِكْرِه في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دلالةٌ على العنايَةِ بِبَحْثِ مَن فيها وما فيها، والعناية بمُؤْمِنيها؛ لإنجائِهم من الهلاكِ الوَشيك، وهذا ملمَحٌ يُقوّي العمومَ، ويؤكِّد شمولَ كلِّ قومِ لوط إلّا أهل بيته المؤمنين.

بلاغةُ الاستثناء بـ ﴿غَيْرَ﴾ في قوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ﴾:

قلّةُ أهلِ الإيمان في جانبِ أهلِ الشَّرِّ والفسادِ

بالتَّعبير بـ ﴿غَيْرَ﴾ في قوله: ﴿غَيْرَ بَيْتٍ﴾ يكتملُ أسلوبُ القَصْرِ القاطع بِقَصْر المؤمنين الَّذين كانوا في القرية قبلَ الإهلاك على أهل بيتٍ واحد، أي: منهم عددٌ قليل جدًّا، أمّا ما دون ذلك؛ فكلُّهم أقذارٌ ساقِطونَ.

وهو قَصر حقيقيٌّ تحقيقيٌّ لا تجوُّزَ فيه، يَقصر وجدان الإيمانِ على أهل بيتٍ واحد، لا يتجاوَزُهُم إلى غيرهم، وفي قَصر الإيمان في القرية على بيتٍ واحدٍ تصديقُ قول الرَّسول ﷺ: «عُرِضَت عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبيَّ ومَعَهُ الرُّهَيْطُ، والنَّبيَّ ومَعَهُ الرَّجُلُ والرَّجُلانِ، والنَّبيَّ لَيْسَ مَعَهُ أحَدٌ»[1].

دلالة التَّعبير بـ ﴿بَيْتٍ﴾، ولطيفةُ تنكيرِه:

أهلُ الاستقامة بين أهل الفُحشِ والخَنا، غرباءُ

في التَّعبير بـ ﴿بَيْتٍ﴾ دون (سكَنٍ) مثلًا في قوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ دلالة على اتِّخاذهم إيّاه مبيتًا فحسبُ، دون أن يكون بينَهُم وبين أهل القرية الفاسقين أيُّ انسجامٍ وتآلُفٍ.

كذلك في تنكيرِه معنى الاغتراب، وأنَّ أهله كانوا في تلك القرية أهلَ غربة منكورين من أهلها، وفي تنكير ﴿بَيْتٍ﴾ كذلك إيحاءٌ بأنَّه بيتٌ شريفٌ، أشرافٌ أهلُه.

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في القيد ﴿مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ بيانيَّة؛ تُبين عن صِفَةِ أهل هذا

(1) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (5705)، ومسلم في صحيحه، رقم: (220) واللفظ له.

البيت الطّاهر، وأنَّهم أسْلَموا أنفُسَهُم لله تعالى قيامًا على خدمةِ دينِه الحقِّ، "وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الكفرَ إذا غلبَ، والفسقَ إذا فشا؛ لا تنفع معه عبادَةُ المؤمنين، بخلاف ما لو كان أكثرُ الخلقِ على الطَّريقة المستقيمة، وفيهم شِرْذِمة يسيرة أهلُ شرٍّ وفسادٍ.

الحُكم بالهلاك أو النَّجاة لغلبة الصّالحين أو الطّالحين في البلاد

وقيل في مثاله: إنَّ العالَم كَبَدَنٍ، ووجودَ الصّالحين كالأغذية الباردة والحارَّة، والكفّارَ والفسّاق كالسُّموم الواردة عليه الضّارَّة، ثُمَّ إنَّ البدن إنْ خلا عن المنافع، وفيه المضارُّ؛ هلك، وإن خلا عن المضارِّ، وفيه المنافعُ؛ طاب عيشُه، ونَما، وإن وُجد فيه كلاهُما؛ فالحكم للغالبِ، فكذلك البلادُ والعباد"[1].

لطيفة الجمع بين وصفَي: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ في السّياق:

مَدْحُ أهلِ بيتِ لوطٍ بوَصْفَيِ الإيمانِ والإسلامِ

ذكر بعضُ أهل العلم أنَّ ذِكْر ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ و﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هاهنا لإرادَةِ المدح، وبأنَّ الثّانيَ ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عينُ الأوَّل ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لوقوعهما مقابلَيْن للكافرين، فقيل أوّلاً: ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾، ثمَّ ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾، والثّاني منهما عينُ الأوَّل، والمقصودُ بكونِ المسلمين عينَ المؤمنينَ إنَّما هو في الصِّدْقِ والذّاتِ، لا في المفهوم[2]، وكذا يُقال عن وصف المجرمين مع المسرفينَ.

و(الإسلام): الانقياد والاستسلام لأمر الله سبحانه، فكلُّ مؤمنٍ مسلمٌ، ويدلُّ لذلك قولُ الله تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: 14]، وقد أوضح رسولُ الله ﷺ الفرق بين الإسلام والإيمان في حديث جبريلَ المشهور حين سأله عن الإسلام، فقال: «الإسلامُ: أن تَشهَدَ أن لا إلَهَ إلّا اللّه، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللّه، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤْتيَ الزَّكاةَ، وتَصومَ رَمَضانَ، وتَحُجَّ البَيتَ؛ إنِ استَطَعْتَ إلَيهِ سَبيلًا»، وسُئِل عن الإيمان، فقال:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 181.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 10/ 28.

«أن تُؤْمِنَ باللّه، ومَلائِكَته، وكُتُبه، ورُسُله، واليَومِ الآخِرِ، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيره وشَرّه»[1].

ووصْفا الإسلام والإيمان إذا اجتمعا؛ افْتَرقا، فدلَّ الإيمانُ على أعمال الباطِنِ، والإسلامُ على أعمال الظّاهر، فكان في الجمعِ بين الوصفين مدحٌ بليغٌ وثناء عظيم لأهل بيت لوطٍ عليه السلام.

لطيفةُ صوغ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ و﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ على صيغة اسم الفاعلِ:

لا ينفع الإيمانُ الطّارئ من الكافر بعدَ حُلول أسبابِ الهلاكِ

في صياغة ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ و﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ على صيغة اسم الفاعل؛ إشارةٌ إلى كونهم "عريقين في الإسلام الظّاهر والباطن لله تعالى، من غير اعتراضٍ أصلًا".

فكان هذا البيتُ الواحد صادقًا عليه الإيمانُ الَّذي هو التَّصديق المستلزمُ للقبولِ والإذعان، والإسلامُ الَّذي هو الانقياد، وإطلاقُ الوصفين جميعًا؛ لأنَّه ما آمنَ مؤمنٌ إلّا وهو مسلم؛ لِما بينها من التَّلازُم؛ وإن اختلفَ المَفْهومان[2].

معنى (الواو) في جملة ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾:

كلُّ الأفعال الَّتي تقع في الكون هيَ بأمرِ الله تعالى وإذْنه وقُدْرَته

(الواو) في قول الله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ عاطفة؛ إذ تَجْمَعُ تلك الأفعالَ ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾، ﴿فَمَا وَجَدْنَا﴾، ﴿وَتَرَكْنَا﴾، وكلُّها أفعالٌ لله تعالى، سواءٌ أكانت له حقيقةً أم كانت للملائكة الكرام، وأسندها الله تعالى إلى نفسه تشريفًا لهم وتكريمًا، وتنويهًا بأنَّهم لا يعملون عملًا، ولا يفعلون فعلًا إلّا بإذنه وبأمرٍ منه ﷻ.

وعُطِفَ بين الجملتين بالواو؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالين؛ فإنَّ الجملتين اتَّحدتا في الخبريَّة، وبينَهُما مناسبَةٌ لفظيَّة ومعنويَّة،

(1) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (8).
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 466.

فأمّا اللّفظيَّة؛ فاشتراكُهُما في الفعليَّة الماضويَّة، واتِّحاد المسند إليه فيهما، وأمّا المعنويَّة؛ فالجُملتانِ بينَهُما جامِعٌ وهميٌّ وهو التَّضادُّ؛ إذِ الأولى فيها بيانُ نجاةِ أهل الإيمان، والثّانية فيها بيانُ هلاكِ أهلِ الكُفْرانِ.

دلالةُ التَّعبير بفعل التَّرك مسندًا إلى ضمير العظمة:

الإيماءُ إلى القوّة الإلهيَّة والجَبروت الرَّبّانيّ

في التَّعبير بفعل التَّرك في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ دلالة على خُلود آثار الإهلاك الَّذي حلَّ بقوم لوط ﷺ؛ لأنَّ "إبقاء آثار المهلَكين أدلُّ على قدرة مَن أهلكهم"[1] ﷻ، وأزجَرُ لِمن يراه إلى يوم القيامةِ.

وفي إسناد فعلِ التَّرك إلى ضمير العظمة دليلُ القوَّة والجَبروت الَّذي فَعَل بهم الأفاعيل، أي: أهلكنا قُرى قومِ لوط، وتركنا آثارَ الإهلاك خالدةً بعَظَمَتِنا الَّتي لا يعوقُها شيءٌ.

بلاغةُ الصّورة المجازيَّة والكِنائيَّة في فعل التَّرك:

إهلاكُ المُجرِمين وإبقاءُ ما يدُلُّ على هَلاكهم

حقيقةُ التَّرك: مفارقة شخصٍ شيئًا حَصَل معه في مكانٍ، ففارق ذلك المكانَ، وأبقى منه ما كان معَهُ، كقول عنترةَ:

فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السِّباعِ يَنُشْنَهُ[2]

ويُطلق على التَّسبُّب في إيجاد حالٍ تطولُ، كقول النّابغة:

فلا تتركنّي بالوعيدِ كأنّني *** إلى النّاسِ مطليٌّ به القارُ أجربُ[3]

"بتشبيه إبقاء تلك الحالة فيه بالشَّيء المتروك في مكانٍ، ووجهُ الشَّبه: عدم التَّغيُّر، والتَّرك في الآية: كنايةٌ عن إبقاء الشَّيء في موضعٍ دون مفارَقة التّارك، أو هو مجاز مرسَلٌ في ذلك، فيكون نظيرَ ما في بيت النّابغة"[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 467.
(2) البيت لعنترة من معلقتِه، يُنظر: الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنترة بن شداد، ص: 174.
(3) ديوان النابغة الذبياني، ص: 73، طبعة دار المعارف.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 8.

بيانُ مرجع الضَّمير المجرور في ﴿فِيهَآ﴾:

الضَّمير راجع إلى القريةِ أو القِصَّة

الضَّمير المجرور في قوله: ﴿فِيهَآ﴾ يعود على القريَة، أي: "وتركنا في هذه القرية الَّتي أخرجْنا مَن كان فيها مِن المؤمنين آيةً"[1]، أو يعود إلى "ما يُؤْخَذ من مجموع قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ على تأويل الكلام بالقصَّة، أي: تركْنا في قِصَّتهم"[2].

نكتةُ تكرار القيد ﴿فِيهَآ﴾:

إهلاكُ الظّالمين يتركُ أثرَهُ البالغَ في أماكنِ هَلاكهم؛ حتى تصيرَ نفسُها عِبرةً وآيةً

في تَكرار القيد بالجارِّ والمجرور ﴿فِيهَآ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ﴾ بعد سَبْق ذِكْرِه مرَّتين في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا﴾؛ تأكيد على تَبَدُّل أحوال ما كان في القَرية من استقرارٍ إلى ما حلَّ فيها مِن خرابٍ، وعلى عُمقِ الأثر وخُطورتِه فيها وفي أهلها البائدين، وأنَّه ليس خرابًا ولا عذابًا ظاهريًّا فحسبُ، بل عذابٌ حَلَّ فيها وفي أعماقِها، كما يُشير إلى ذلك مَعْنى الظَّرفيَّةِ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ﴾ تجريد بديعيٌّ، أي: "وتركناها آيةً؛ لأنَّها هي الَّتي ائْتُفِكَت بأهلها، فهي نفسُها الآية، وذلك كقول القائل يَرى الشَّيء: في هذا الشَّيء عِبرةٌ وآية، ومعناه: هذا الشَّيء عِبرة وآيةٌ، كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿۞لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧﴾ [يوسف: 7]، وهم كانوا الآياتِ وفِعلُهُم"[3].

دلالة التَّعبير بـ ﴿ءَايَةٗ﴾، ولطيفةُ تنكيرها:

آيةُ هلاكِ قومٍ لوطٍ مِن أبلغِ العِبَرِ والعِظاتِ

الآيَة في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ﴾ هي العِظَة والعِبْرة، أي: تركنا فيها "أثرًا مِن العذاب باقيًا مؤرِّخًا لا يَفْنى ذِكْرُه"[4]، و"علامةً

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 533.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 8.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 533.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 179.

تدلُّ على إهلاكهم الدُّنيويِّ الدّالِّ على الأخرويِّ"[1]، والآية المتروكة في قرية قوم لوط هي الدَّمار والهلاك الَّذي حلَّ بها وبساكِنيها؛ إذ رآه مَن كان يَمُرُّ بها بعدَ هذا العذاب الَّذي نزلَ بها، ثمَّ بَقي لها بعد ذلك ذكرٌ سيِّئٌ في صُحُف التّاريخ، وفي الكتب السَّماوية، الَّتي نزلت على رُسُلِ الله ﷺ بعد هذا، ففي تلك الآية سُلطانُ الله تعالى وقدرتُه، وأخْذُه الأليم الشَّديد لِمَن يَخرجون عن صراطه المستقيم[2].

و"هذه الآية هي الحجارة الَّتي رُجِموا بها[3]، والقرية الَّتي بَقيت خرابًا لَم تعمر، فكان ما فيها من آثار الخراب آيةً للَّذين يخافون عذابَ الله"[4].

وفي تنكير ﴿ءَايَةً﴾ تهويلٌ لشأنها، وتخويفٌ مِن مثلها، فكأنَّها آيةُ الآيات، وأخطرُ المُهْلِكات؛ بحيث يتهيَّبها مَن يسمَعُ تنكيرَها أشدَّ التَّهيُّب، والواقع هكذا فعلًا، فهي من الغرابة كغرابةِ جريمة مَن حلَّت بهم، فقد "قلعْنا قُراهم كلَّها، وصَعِدَت في الجوِّ كالغمام إلى عَنان السَّماء، ولم يَشْعُر أحدٌ مِن أهلها بشيءٍ من ذلك، ثُمَّ قُلِبت، وأُتبِعَت الحجارةَ، ثُمَّ خُسِف بها، وغُمِرَت بالماء الَّذي لا يُشبِه شيئًا من مياه الأرض، كما أنَّ خباثَتَهُم لم تُشْبِه خباثةَ أحدٍ ممَّن تقدَّمهم من أهل الأرض"[5].

معنى اللّام في القيد ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

بَقاءُ آثارِ إهلاك المجرمين للعظةِ والاعتبار

(اللّام) في القيد ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ لامُ التَّعليل، أي: تركنا فيها آيةً لأجل أن يَعْتَبِر الَّذين يخافون العذابَ الأليم، حتّى يتَجَنَّبوا تلك الرَّذيلة، فلا يحلَّ بهم، ولا يَنْزِل فيهم ما حلَّ بها، ونزل فيها مِنَ الدَّمار والخراب والعذابِ.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 42.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 524.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 107.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 8.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 467.

وهي كذلكَ مفيدةٌ الاختصاصَ، فالآيَةُ مختصَّةٌ بالَّذين يخافونَ العذاب الأليمَ.

علَّةُ التَّعبير بـ الموصول (الذين):

الموصول عنصرُ تشويقٍ، كما أنَّه عنصرُ تهيئةٍ لذِكْرِ تفاصيلِ الصِّلَة

التَّعبير بالموصول (الذين) يُفسح العبارة، ويُهَيِّئُها لِذكر جملة الصِّلة ﴿يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾؛ ولا يُتيحُ هذه الدَّلالةَ الاسمُ الصَّريح، مع ما في الموصول من الافتقارِ إلى صلةٍ تُبيِّنُهُ، فيُثير الشَّوق إلى تبيينِ هؤلاء وتخصيصِهم، فكان الموصولُ بذلك عنصرَ تشويقٍ، كما هو عنصرُ تهيئةٍ لِذِكْرِ تفاصيلِ صِلَتِه.

وجيءَ بالموصول (الذين) وهو من ألفاظِ العموم المفيدَةِ للاستغراقِ، فأفادَ أنَّه حكمٌ عامٌّ يشمل مَن شَهِدَ العذاب من الأقوام القَريبة، أو مَن سَمِعَ بها حتّى قيام السّاعة، وفي جملةِ الصِّلة ما يُشْعِرُ بالمدح، وبالتَّعليل بتوجيهِ إنذاره ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ دون غيرهم؛ لأنَّ إنذارَ الَّذين يخافون العذاب الأليم إنذارٌ نافع، يُجدِّد خشيَتَهُم، ويُديم عملهم الصّالح.

دلالةُ التَّعبير بفِعلِ الخَوفِ مضارعًا:

المؤمنُ ينتفِعُ بالعِبر والعِظات، أمّا الكافر؛ فلا تَزيدُهُ إلّا ضلالًا

قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ هم المؤمنون، و"إنَّما خُصَّ الَّذين يخافون العذاب الأليم؛ لأنَّهم الَّذين يتَّعظون بالمواعظ، ويتفكَّرون في الآيات دون غيرهم ممَّن لا يخاف ذلك، وهُم المُشْركون المُكَذِّبون بالبَعْثِ والوعد والوعيد"[1]، وتدلُّ المُضارَعَة على تجدُّد خَوْفهم مِن عذاب الله تعالى؛ لدَوامِ تفكُّرهم في آياته، والاعتبار بِما أصابَ الأممَ السّابقة مِن صُنوف العذابِ.

معنى (أل) في ﴿ٱلْعَذَابَ﴾:

يجوزُ أن تكون (أل) في ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ هنا للعهد الذِّكْريِّ، أي:

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 107.

عذاب قوم لوط السّابق ذِكره، ويجوزُ أن تكون (أل) لتعريف الجنس، أي: يخافون جميع صنوف العذاب المعدَّة للكافرين، وهكذا شأنُ المؤمنين فعلًا، يخافون العذابَيْن: الخاصِّ والعامِّ؛ لأنَّهم المؤمنون المُصَدِّقون بوعد الله تعالى لأهل الإيمان وإيعادِه لأهل الكفرانِ، وتعريف ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ يُضفي عليه مِن الخُطورة ما يجعله محذورًا، فهو العذابُ البالغ في بابهِ مَبْلغًا لا يُتصوَّر، سواءٌ ما كان منه في الدُّنيا استئصالًا، أو ما كان منه في الآخرة نارًا وحميمًا وغسّاقًا.

المؤمنون يُصَدِّقون بِوعدِ الله تعالى لأهل الإيمانِ ووعيده لأهل الكفرانِ

دلالةُ وصف ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ بـ ﴿ٱلْأَلِيمَ﴾، وصوغه على (فعيل):

العذاب الأليم: هو الوجيعُ المُؤلِمُ[1]، وصيغَ وصْفُ (عذاب) بـ (أليم) في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ صيغةَ مبالغةٍ، وهو بمعنى (مؤلم)، غيرَ أنَّ وصف ﴿ٱلْأَلِيمَ﴾ أدخلُ في الدَّلالة على الإيلام والإيجاع، وأدلُّ على شدَّته بحيث لا يُحْتَمَل، أمّا (مؤلم)؛ فيُطْلَقُ على كلِّ ألمٍ، سواءٌ أكان محتَمَلًا أم لا، ولن تبلُغَ صيغةُ اسم الفاعل (مؤلم) مبلغَ صيغة المبالغةِ (أليم) في إفادةِ هول عذابِ مَن يكذِّب شَرعَ الله ﷻ.

المؤمنون يُصَدِّقون بوقوع العذابِ على العُصاة، فيَخافونه

وفي وصف ﴿ٱلْأَلِيمَ﴾ حرفُ مدٍّ يُشعر بأنَّه عذابٌ يَتطاوَلُ إيلامُه على الكافر، ويمتدُّ عليهِ، ولا ينقَطِعُ عنه، وهذا يناسب دلالة الدَّوام والثَّبات الأصيلَتَيْن في صيغة (فعيل)، أمّا (مؤلم)؛ فاللَّفظ مقطوع قطعًا قَد يوحي بانتهاءِ إيلامه إلى أمدٍ محدَّد، وهذا يناسب دلالةَ التَّأقيتِ الَّذي يُعَدُّ أحد دلالاتِ صيغة (فاعل)، وهكذا تتآزرُ الصّيغةُ الصَّرفيَّة مع الإشارة الصَّوتيَّة على بيان ما سيَلْقاهُ الكافر من عذاب أليمٍ دائم متطاولٍ زَمانُهُ، موجعٍ في الآخرةِ.

والمؤمنون يخافون العذابَ كلَّه، فكلُّ عذابٍ عندهم أليمٌ؛ لأنَّهم

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 160.

يؤمنون به، ويصدِّقون بوقوعِه، فيخافونه خوفًا يَحْمِلُهُم على الطّاعة، ويمنعهم من المعصية.

بلاغةُ المجاز العقليّ في ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾:

العذابُ في الحقيقة سببٌ للإيلام، غير أنَّ أثرَهُ مِنَ الإيلام حين يبلغُ الغاية الَّتي لا غاية وراءها يترقّى في الإيلام إلى درجةِ أن يكون العذابُ نفسُهُ أليمًا، وفي ذلك مجاز عقليٌّ، وهذا ما يستحقُّه الكافرون الَّذين وثَقوا بالشَّيطان، واتَّبَعوه، ودابروا طريقَ الرَّحمن، وعادَوه، وهذا ما يعتبِر المؤمنون بوقوعه للأمم الهالكة، ويخافونَهُ على أنفسِهم على الدَّوام.

كلُّ عذاب الله تعالى عندَ المؤمنين أليمٌ

بيانُ المتشابه مع آية سورة العنكبوت:

وقع التَّشابه اللَّفظيُّ بين قوله تعالى هنا في سورة الذّاريات: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، وقولِه تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: 35].

القصدُ في العنكبوتِ تخويفُ القومِ، والغرضُ في الذّارياتِ تسليةُ القلبِ

فبينَهما في اللَّفظ فرقٌ في وصف ﴿ءَايَةً﴾ بـ ﴿بَيِّنَةً﴾ [العنكبوت: 35] في العنكبوتِ، وترك وصفِها في الذّارياتِ، وتباين الوصف بين ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: 35] و﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾.

والعذاب في العنكبوت "مذكورٌ بأبلغ وجهٍ، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ [العنكبوت: 35]؛ إذ وصفَها بالظُّهور، وكذلك ﴿مِنْهَآ﴾ [العنكبوت: 35] هناك و﴿فِيهَآ﴾ هنا؛ فإنَّ (من) للتَّبعيض، فكأنَّه تعالى قال: مِن نَفْسِها لكم آية باقيَة، وكذلك قال: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: 35]، فإنَّ العاقل أعمُّ من الخائف، فكانت الآيةُ هناك أظهرَ، وسببُه ما ذَكرنا أنَّ القصد هناك تخويفُ القوم، وهاهنا تسليةُ القلب؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾،

وقال هناك: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت: 33] من غير بيانٍ وافٍ بنجاةِ المسلمين والمؤمنين بأسْرِهم"[1].

توجيهُ المُتشابه اللَّفظيّ في قصَّة إبراهيم عليه السلام:

التَّشابهُ اللَّفظي يَفي بحقِّ السّياقات القرآنيَّة

قصَّ تعالى هذه القصَّة في سورة هود على نمَطٍ، وفي الحِجْرِ على نمط آخرَ، وفي الذّاريات بأسلوبٍ مغايرٍ، فقد قال الله تعالى في الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى﴾ [الحجر: 51 - 54]، إلى قوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨﴾ [الحجر: 57 - 58]، وفي الذّاريات: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨﴾ [الذاريات: 25 - 28]، إلى قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣١ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾.

وذكر في سورةِ هود: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠﴾ [هود: 70]، ثمَّ ذكر البِشارة بعده، ولم يذكُرْهُ في الموضعين، فينبغي أن يُقَدَّر فيهما قبلَ البِشارة هذا المعنى، ويُقَدَّر في سورة هود بعد الفراغ من البِشارة: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣١ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾؛ لأنَّه لم يَذْكُرْهُ فيه، وذَكَره في الموضعين، وزيد في سورةِ هودٍ حديثُ المُجادَلَة عن قوم لوطٍ، ولم يُذكَر في الموضعين؛ فيُقَدَّر فيهما، واختُصر في سورة الحِجْرِ بعد قولِهم: ﴿سَلَٰمًا﴾ [الحجر: 52] جوابُهم: (قالوا: سلام)، فيقدَّر ذلك مع ما يَتِمُّ به المعنى، حتّى يتَّصل بقولِه: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ [الحجر: 53].

وهذا بابٌ من الإيجاز المختصِّ بالإعجاز، ويحتاج في التَّوفيق

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 181.

إلى قانونٍ يُرجَع إليه، وهو أن يُعمَد إلى الاقتصاصات المتفرِّقة، ويُجعل لها أصلٌ بأن يُؤْخَذ من المباني ما هو أجمع للمعاني، فما نقص فيه من تلك المعاني شيءٌ يُلحق به[1].

نكتَةُ البَدءِ في سَرْدِ المُهْلَكين بقصَّة قوم لوط عليه السلام:

قصَّةُ قومِ لوط أشبَهُ القَصَص بقصَّة مشركي قُريش

في ابتداء ذِكر هلاك الأقوام بقصَّة قوم لوط عليه السلام أنَّ المشركين وُصِفوا آنفًا بأنَّهم ﴿فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾ [الذاريات: 11]؛ فكانوا في تلك الغَمرَة أشبهَ بقوم لوطٍ؛ إذ قال الله تعالى فيهم: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: 72].

ولأنَّ العذابَ الَّذي عُذِّب به قومُ لوط كان حجارةً أُنزِلت عليهم من السَّماء مشبَّهةً بالمطر، وقد سُمّيت مطرًا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ [الفرقان: 40]، وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: 74][2]، كما ابتُدِئ بذكر قوم لوطٍ؛ لأنَّ قُراهُم واقعةٌ في مَمَرِّهم إلى فلسطينَ للاتِّجار[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإسراف والظُّلم:

الإسراف والظُّلم يتداخلان من جهة التَّجاوز، ويفترقان من جهة الغايَةِ والمجال

الإسْراف: هوَ صرف الشَّيء فيما لا يَنبَغي زائدًا على ما يَنبَغي، وحقيقتُهُ: تجاوزٌ في الكمّيَّة، فَهوَ جهل بمقادير الحُقوق[4]، والظُّلم: مصدر ظَلَمَ ظُلمًا ومظلمةً؛ إذا جار، وجاوَزَ الحَدَّ، ووضع الشَّيء في غير مَوْضِعه[5].

يُزادُ على ذلك أنَّ الإسراف فيه مجاوزَةٌ فيما يخصُّ الإنسانُ نفسَه غالبًا، بلا اعتبارٍ لحقِّ غيره، والظُّلم فيه مجاوزةٌ لحقِّ الآخرينَ أو

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 8/ 131.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 356.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 41.
(4) أبو البقاء، الكليات، ص: 113.
(5) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (ظلم).

النَّفس، ويتضمَّن اعتداءً أو حرمانًا، وقد يجتمعان في موضعٍ واحدٍ، كقوله تعالى: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: 53]، فالآية جمَعَت بين معنى الإسراف - وهو تجاوزُ الحدِّ في المعصيةِ - والظُّلم للنَّفْس.

والحاصِلُ أنَّ الإسرافَ نوعٌ من الظُّلم إذا أدَّى إلى ضياع حقٍّ، والظُّلم قد يتضمَّن إسرافًا؛ إن تجاوز الحدَّ، فهما يتداخلان من جهة التَّجاوز، ويفترقان من جهة الغايةِ والمجالِ.

الخوف والخشية والحذر:

الخشيةُ أعظم من الخَوْفِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد: 21]، فذكر الخشيةَ في جانبه سُبْحانه، والخوفَ في جانب الحِساب، هذا وقد يُراد بالخشية: الإكرامُ والإعظام، وعليه حُمِلَت قراءة من قرأ: (إنما يخشى اللّٰه من عباده العلماءَ) برفع لفظ الاسم الأجل ونصب العلماء[1]، وهي قراءةٌ شاذَّةٌ.

الخشيةُ خوفٌ مخصوصٌ، والخوف عامٌّ، والحذر التَّرقُّب والتَّيقُّظ

و"الخوف: فراغُ باطنٍ، وهو قريبٌ من الرُّعْب والفَرَق، أمّا الخشية؛ ففيها استشعارُ النَّفس حِدَّةً تقعُ لا مَهرَبَ منها؛ إذا استوجِبَت، وفيها مع ذلك استيحاشٌ وجَفْوة وخُشونة قد يُعَبَّر عنها التَّوتُّر الحادُّ"[2].

و"الحَذَر: احترازٌ مِن مُخيفٍ، يقال: حَذِرَ حَذَرًا، وحذرته، قال: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الزمر: 9]، وقُرِئَ: (وإنّا لجميع حَذِرون)، و﴿حَٰذِرُونَ ٥٦﴾ [الشعراء: 56]، وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [آل عمران: 28]، وقال: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: 71]، أي: ما فيه الحَذَرُ مِن السِّلاح وغيره، وقوله: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ [المنافقون: 4]"[3].

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 217.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خشي).
(3) الراغب، المفردات: (حذر).

والحذَر: التَّرقُّب والتَّيقُّظ، وهو في القرآن الكريم على ثلاثة أوجهٍ، **الأوَّل:** الخوف والخطر، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [آل عمران: 28]، أي: يخوِّفكم. **والثّاني:** الإباء والامتناع، كما قال سُبحانَهُ: ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ [المائدة: 41]، أي: امتنعوا. **والثّالث:** كِتمان السِّرِّ، ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾ [التوبة: 64]، أي: مظهرٌ ما تكتمون"[1].

وأمّا العلاقة الدَّلاليَّة بين الخوف والخَشية والحَذَر؛ فإنَّها تقوم على اشْتِراكها في معنى الرَّهبة وتوقُّع المكروه، لكنَّها تختلف في دِقَّة السَّبب وآثاره، فالخوف عامٌّ، وهو توقُّع مكروهٍ في المُستقبل، وقد يكون حقيقيًّا أو موهومًا، والخَشية خوفٌ مع علْمٍ وتعظيمٍ، وله تعلُّق بجلالِ المخشيِّ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]، وأمّا الحذر؛ فسُلوك عمَليٌّ ناتج عن خوف، يُعبَّر به عن الحيطةِ والتَّوقّي.

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 2/ 441.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والخمسون،
سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 57 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-650-27-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 57 : المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-650-27-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4331956 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"